

الإيمان بالغيب وتأثيره على حياتنا وعلاقاتنا وسلوكياتنا

دور الإيمان بالغيب في تشكيل شخصية الإنسان ونمط حياته

للتغور على المسار الصحيح في الحياة، نحن في أمس الحاجة إلى نقطة ثابتة وموثوقة تُنجينا من دوامة القلق والتردد، وتمنحنا القدرة على اتخاذ التوجه السليم. يسمي القرآن الكريم هذه النقطة "الإيمان بالغيب"، وهي عقيدة تعد الشرط الأول للهداية ومعيار لصلابة الشخصية .

في الرؤية القرآنية، الغيب هو مجموعة من حقائق خفية فعالة يقوم عليها نظام الوجود؛ حقائق مثل حضور الله تعالى، والملائكة، والملكوت، واليوم الآخر، والجنة، والنار، وسيطرة العالم الباطن على العالم الظاهر. وعلى الرغم من أن حياتنا الظاهرية تركز على الأسباب المادية، إلا أنه لا يحدث أي ظاهرة دون أمر غيبي أو تدبير ملكوتي. سواء أدركنا ذلك أم لا، فإننا نرافق الغيب دائماً، وكلما تعمق إيماننا بهذه الحقيقة، أصبح توجهنا في الحياة أكثر دقة، وسكينتنا أعمق جذوراً.

ينبغي ألا يُختزل الإيمان بالغيب في مجرد الاعتقاد بعالم غير مرئي؛ بل هو في حقيقته إقرار بأن العالم الظاهر والمحسوس ليس إلا السطح الأكثر هشاشة للواقع، وأن جذور جميع الأمور تكمن في مرتبة أسمى وأرفع. فتجاهل هذه الحقيقة يؤدي إلى نقص في فهمنا لأنفسنا ولمفهوم الله ولعالم الخلق، ويقيم سلوكنا على قاعدة حسابات قصيرة المدى . في المقابل، من يؤمن بالتدبير الحكيم لعالم الغيب، فإن اختياراته وسلوكياته ورؤيته للحياة تتغير جذرياً. والإيمان مفهوم يتجاوز مجرد "العملية المعرفية" (المعرفة) ليعني توظيف هذه المعرفة وتحويلها إلى رأسمال حقيقي وملكة راسخة. فالذي يعتقد بالغيب ويتوكأ عليه في ممارسته العملية، يقدم رضا الله على رضا الخلق، ولا يرى في المصاعب والشدات طريقاً مسدوداً.

إن الإيمان بالغيب متأصل في حقيقة الوجود وبنية كياناتنا. في هذا الدرس نتناول: حقيقة الغيب، ودوره في هداية الإنسان، وعلاقة الإيمان بالغيب باكتشاف حقيقة الذات، وآليات إدارة الكون الخفية، وآثار قبول الغيب في علاقات الإنسان ونمط عيشه.

ماهية الغيب ودور الإيمان به في مسار الهداية

إنّ النموّ في طريق الهداية يتشكّل بقدر معرفتنا وإيماننا القلبي بالغيب. فمن لا يؤمن بالغيب - أي بالله تعالى، والملائكة، والآخرة، والجنة والنار - لا يستطيع أن يخطو خطوةً حقيقيةً في مسار الهداية. وقد جعل القرآن الإيمان بالغيب من أبرز سمات المؤمن، وأول شرطٍ من شروط الهداية؛^١ بمعنى أنّ ميزان تشخيص المؤمن الحقّ يتناسب مع مقدار حضور الغيب في حياته. بالإضافة إلى ذلك، فإن قدرتنا على التحمّل في الشدائد مرتبطة بهذا الإيمان، تمامًا كما نقول في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.^٢ إذا لم يتجاوز هذا الذكر حدود التردد اللفظي، فإننا - بدل الاتكال على الله - سنلجأ إلى قوى هي نفسها محتاجة، ولا تكون النتيجة سوى القلق وخيبة الأمل.

الغيب يقابل الشهود؛ أي ما لا تدركه الحواس الظاهرة، لكنه فاعل في الوجود. تندرج ضمن هذا الأفق عوالم متعددة من الوجود، كعالم الجبروت، والملكوت، وعالم الأسماء، والملائكة. ولا يمكن الانتفاع بهدايات القرآن إلا إذا آمنّا بباطن هذه العوالم. أمّا الذين لا يملكون إيماناً صحيحاً بالغيب، فإنهم يتجهون إلى تفسير ماديّ وسكولاريّ للقرآن، ويقعون في الخطأ بحذفهم البعد الباطني للآيات. فمن دون الإيمان بالغيب تبقى نظرتنا إلى أنفسنا، وإلى الكون، والوحي، والله تعالى نظرةً ناقصة.

يتميز عالم الغيب ببنيةٍ متسقة ومراحل متتابعة، فلا ينبغي فهمه على أنه مرحلة لاحقة للعالم المادي، بل هو الأصل والمُنطلق. فلوحة الخلق بدأت من رحم الغيب: انبثق الوجود من كلمة «هُوَ» المطلقة، تجلّت في اسم "الله"، ثم تفرعت إلى أسماءٍ وصفاتٍ، لتتجلّى أولى أنوار الخلق في نور أهل البيت (عليهم السلام)، المثل الأعلى،^٣ وهناك، في ذلك العالم النوراني، تلقّوا التعليم الأول: القرآن. وبعد أن اكتملت هذه الحلقة المقدسة، وُجد الإنسان. وهو ما أشارت إليه آيات سورة الرحمن بإيجاز بليغ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾. وهكذا، قدّم الدليل والمُرشد قبل دخول ساحة الامتحان، فلم يخلُ إنسانٌ إلى هذه الدنيا بغير هداية أو تكليف. وبهذا المنظور، تكون الآخرة هي الأم التي احتضنت الدنيا في رحمها، وهي الأصل الذي سبق الفرع.^٤

^١ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب...: سورة البقرة، الآيات ٢ و ٣

^٢ سورة الحمد، الآية ٥

^٣ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «أول ما خلق الله نوري؛ مجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ق، ج ٥٤، ص ١٧٠»

^٤ أميرالمؤمنين (عليه السلام): الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَ الْآخِرَةُ مُحِيطَةٌ بِالدُّنْيَا؛ ديلمى، حسن بن محمد، إرشادالقلوب، قم، الشريف الرضى، ١٤١٢ ق، ج ٢، ص ٢٩٩

أما المؤمن فهو يستحضر هذا الامتداد الأبدي على الدوام، ويرى الدنيا قشرةً تغلف الحقيقة. فالغيب - وإن كان غير مرئي - ليس منفصلاً عتاً؛ والفاصل بيننا وبينه هو مجرد حجاب، لا مسافة مكانية. والإيمان بالغيب يشبه حال الجنين في الرحم؛ لا يرى العالم الخارجي، لكنه ليس منفصلاً عنه. وقيمتنا الحقيقية تكمن في إيماننا بالحقائق التي لا تُرى، لكن آثارها جليّة في حياتنا.^٥ وقد ذكر القرآن - بعد نفي الشك - أنّ أول شرطٍ للهداية هو الإيمان بالغيب، ثم إقامة الصلاة، ثم الإنفاق. فالإيمان الحقيقي يمهد طريق الفرح والأمان، ويقود إلى نيل النعم الأخروية، ولا يمكن بلوغ هذا الهدف بالكتفاء بالفرائض الظاهرية، ولا بتدوين نابعٍ من الخوف أو العادة..

علاقة الإيمان بالغيب واكتشاف «الأنا» الحقيقية

إنّ الإيمان بالغيب لا يقتصر على العالم الخارجي فحسب؛ فجزءٌ أساسي منه يكمن في أعماق الإنسان، لا يرى بالعين، لكنه يصوغ حقيقة شخصيته. ومن دون معرفة هذا الغيب الداخلي لا يبدأ مسار النمو، ولا يجد البعد الإلهي في وجود الإنسان مجالاً للظهور والتجلي.

وأولى خطوات الإيمان بالغيب هي الإيمان بغيب النفس؛ أي أن يعرف الإنسان الحقيقة الإلهية الكامنة في نفسه، ويأنس بها، ويحبّها. إن غاية حَلَقِنَا أصلاً هي الالتفات إلى هذا البعد الغيبي؛ فإذا انحصرت حياتنا في حدود الجسد ورغبات الدنيا، ابتعدنا عن مسار الإنسانية. ولا بدّ لنا من معرفة «الأنا الإلهية» في داخلنا، تلك التي غايتها ومعشوقها الله؛ وقد كان من أهم أهداف بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية تنمية هذا البعد وترقيته.

غير أنّ ظهور هذه الحقيقة الباطنية ليس أمراً هيئياً؛ إذ تقاومها الطبقات الجسدية، واللذات الحيوانية، بل وحتى بعض الجوانب العقلية؛ لأنها تدرك أنّ سلطانها يبهت كلما تجلّى هذا البعد. كما أن العقل نفسه قد يخضع أحياناً لقيادة الوهم، لكي لا تنكشف تلك الحقيقة الكامنة.

والصلة بين معرفة النفس والإيمان بالغيب واضحة جليّة؛ فكلما ازداد الإنسان معرفةً بحقيقته، سهّل عليه الاتصال بالغيب، لأنّ لغة «الأنا» الحقيقية هي لغة الغيب. ولا يمكن للمرء أن يقوم للصلاة بجانبه الحيواني

^٥ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآجِزَةً هُمْ يُوقِنُونَ؛ سورة البقرة، الآية ٤

ثم يتوقع نوراً وسكينة في حياته؛ فهذه ثمار تجلّي تلك الأنا الحقيقية التي يحبّها الله. ولهذا قيل: «من لم يعرف نفسه، لم يعرف شيئاً»^٦.
إنّ الإيمان بغيب النفس يعني التصديق بأنّ هناك حقيقةً في داخلنا لو انكشفت لقلبت حياتنا رأساً على عقب. من عثر على هذه الحقيقة فقد ربح، ومن حُرّمها - ولو امتلك كل المعارف - انتهى به المطاف فقيراً خاوي الوفاض.

الإيمان بالغيب والآليات الخفيّة في تدبير العالم

العالم الذي نعيش فيه يبدو مادياً في ظاهره، غير أنّ تدبيره يجري في طبقة خفيّة تُسمّى الغيب. والإيمان بالغيب يعني الاعتقاد بأنّ أيّ ظاهرة - من حركة الكواكب وسلوك الذرّات، إلى نموّ النبات وتكوّن الجنين - لا تُدار بآلياتٍ ماديّةٍ صرفة. فالعالم الطبيعي ليس سوى قِشرةٍ لواقعٍ أعمق، تمتدّ جذوره في عالم الملكوت. تُعدّ الملائكة من أهمّ عمّال عالم الغيب، إذ يتولّون إدارة أدقّ شؤون الحياة؛ من جريان الدم، وطرف العين، ونموّ الشعر، وامتصاص الغذاء، وانعقاد النطفة، وصولاً إلى التحوّلات الروحية. إنّ حياتنا تجري بحولٍ وقوّةٍ ملكوتيّة^٧، ولو انقطع هذا الفيض لحظةً واحدة لعجزنا عن القيام بأيّ فعل.
مثالٌ واضح على قربنا من عالم الغيب؛ هو النوم؛ ففيه يتنخّى الجسد الطبيعي جانباً، وننشط ببدننا البرزخي. هذه الصلة الوثيقة بين البدن البرزخي والبدن المادّي تبلغ حدّاً قد تظهر معه آثار اللدّة أو الخوف البرزخي في صورة استجاباتٍ جسدية، مما يدلّ على أنّ المسافة بيننا وبين الغيب ليست مسافةً مكانيّة، بل إن حجاب الغفلة هو الذي يحول دون رؤيته. أما أهل المجاهدة، لما تسلّطوا على الجسد الطبيعي وخفّت عنهم الحُجُب، يرون في اليقظة بعض الحقائق الغيبية؛ فكلّما قلّت الأدران الباطنية وازداد التوجّه إلى الغيب، قويت قدرتنا على إدراكه.

تكتسب أعمال الإنسان معناها الحقيقي في إطار منظومة الغيب. فالعبادات مثل الصلاة والذكر والدعاء والزيارة والإنفاق وغيرها ليست مجرد إجراءات ظاهرية، بل لها صورٌ غيبية، وتترك أثرها المباشر في النفس بمجرد أدائها. فإذا لم يشعر الإنسان بهذا التأثير، فذلك راجع إلى غفلته الشخصية، وليس إلى عدم وجود

^٦ لَا تَجْهَلُ نَفْسَكَ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِمَعْرِفَةِ نَفْسِهِ جَاهِلٌ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ آمدی، عبدالواحد بن محمد، غررالحکم و دررالکلم، مترجم هاشم رسولی محلاتی، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامی، ۱۳۷۸، ج ۲، ص ۴۹۹
^٧ «بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ أَقْوَمُ وَأَقْعَدُ» و «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»

التأثير نفسه. وبما أن النفس مرتبطة بالقبر، فإن كل عمل يخلق صورته الغيبية على الفور في كيان الإنسان الداخلي. وهكذا، فإن استشعار حضور أهل البيت (عليهم السلام) والملائكة يجعل تحمل المصاعب أهون، لأن الإنسان يختبر في قلبه حقيقة هذه المصاحبة الإلهية.

وللقوى الغيبية حضورٌ فاعلٌ في مسيرة التاريخ أيضاً. ويتحدث القرآن الكريم عن نصره المؤمنين ودعمهم بجُنودٍ غير مرئية^٨. كما وقف الأنبياء في الظاهر وحيدين، لكن اتصالهم بعالم الغيب حول مسار التاريخ برمته. فهبطت الملائكة في ميادين القتال، وانشرحت قلوبٌ للدعوة الإلهية، وحلت الإمدادات الغيبية في ساعة العسرة. فالإيمان بالغيب يعني الثقة بالمنظومة الإلهية التي تعمل خلف ستار العالم.

ومن يؤمن بالغيب لا يربط حياته بالأسباب المحدودة، بل يعتقد أنّ آلاف العوامل الخفية فاعلة في هذا الكون. ومثل هذا الإنسان ينتفع بنور أعماله في عبادته وحياته اليومية، ويوقن أنّ عالم الغيب ملازمٌ لنا على الدوام، وأنّ إزالة حُجُب الغفلة كفيلةٌ بأن تُرينا هذه المعية جليّةً واضحةً.

آثار الإيمان بالغيب في علاقاتنا وأسلوب حياتنا

الإيمان بالغيب هو أن يرى الإنسان نفسه محاطاً بحقيقةٍ خفيةٍ ترافقه على الدوام، سواء التفت إليها أم لم يلتفت. غير أنّ الفارق يكمن في أنّ بعض الناس يُدخلون هذه المعية في حسابات حياتهم، بينما يكتفي آخرون بالاتّكال على قدراتهم المحدودة. ومن هنا تبدأ دوامة القلق، والتنافس المرضي، والإرهاق، والاضطراب. ولذلك جعل الله تعالى أول شرطٍ للهداية قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، لأنّ السكينة تنطلق من هذه النقطة بالذات.

والإيمان في أصله مشتقٌّ من «الأمن»؛ فلا يذوق القلب الطمأنينة إلا حين يتكئ على الله، والآخرة، والملائكة، والحساب. ومن لا يؤمن بالغيب يتزعزع عند أدنى تقلبٍ في الدنيا، فيقع فريسة الخوف والشك؛ أمّا المؤمن الذي يملك سنداً غيبياً، فإنّ هذا الإيمان ينعكس بوضوح على اختياراته وعلاقاته. فمن يقدم رضا الناس على رضا الله، يُوكّل في النهاية تحت رحمة الناس أنفسهم^٩. وهذا يكشف أنّ الاتّكال على الأسباب الظاهرية وحدها تزيد الإنسان ضعفاً و حاجةً. وبالتالي، فإن قيمة الإنسان الحقيقية تقاس بمدى تعلقه بالغيب واعتماده

^٨ (لَمْ أَنْزَلِ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا؛ سوره توبه، آيه ٢٦) و (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ حُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَحُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا؛ سوره احزاب، آيه ٩)

^٩ الامام الحسين (عليه السلام): مَنْ طَلَبَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ أُمُورَ النَّاسِ وَ مَنْ طَلَبَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ؛ ابن بابويه، محمد بن علي، الأمالي، ج ١، ص ٣٣٩

عليه. كما أن للإيمان بالغيب أثره العميق في العلاقات الإنسانية أيضًا؛ فالمؤمن يرى نفسه والآخرين في محضر الله، وأهل البيت (عليهم السلام)، والملائكة، ويضبط سلوكه على قاعدة: «هو أنت، هو رسول الله، وهو الله»؛ أي كأنه يقف أمام الله ورسوله في كلِّ تعامل. ومن ثمَّ لا يستطيع عندها أن يمارس سلوكًا مهينًا، أو أنانيًا، أو عنيفًا. وتُكَمَّل هذا المعنى رواية النبيِّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «السَّائِلُ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^{١٠}. فكلُّما اشتدَّ الإيمان بالغيب، اكتست تصرّفات الإنسان مسحةً إلهيةً أوضح.

وكل من لا يستمدُّ من الغيب فرحًا، وطمأنينةً، وصلابةً، فهو لم يبلغ بعدُ مرحلة الوصال الحقيقي. فالعبادة التي لا تُورث نورًا وبصيرة ليست سوى تعبٍ جسدي. كما ينبغي أن تظهر آثار الإيمان في القرارات، وفي التعامل مع الأسرة، وفي إدارة الأزمات، بل وحتى في السكينة اليومية. فالأمن الحقيقي هو هبةٌ سماوية يختص بها من يؤمن بالغيب، ويجعل منه مرفقاً روحه^{١١}.

إنَّ فقدان الثقة بالغيب هو منبع القلق، والطمع، والحسرة، واليأس. ومن لا يأخذ الأبدية على محمل الجدّ ينهار عند أصغر حادثٍ دنيوي؛ أمّا المؤمن، فيفضل رصيده الغيبي، يبقى متوازنًا ومفعمًا بالأمل حتى في أقسى الظروف. وقد روي أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) حين بلغه خبر وفاة ولده قال: «سُبْحَانَ مَنْ يَقْتُلُ أَوْلَادَنَا وَ لَا تَزْدَادُ لَهُ إِلَّا حُبًّا»^{١٢}. وهذه ذروة الأمن الذي يولِّده الإيمان بالغيب.

إذن، الإيمان بالغيب هو القبول بأنَّ جذور كلِّ شيءٍ قائمة في طبقةٍ خفية من الوجود. وهو الشرط الأوّل للهداية، وأساس الأمن، والطمأنينة، وحُسن القرار، وتشكّل الشخصية. وكلُّما تعمق إيماننا بهذه الجذور الباطنية، تغيّرت نظرنا إلى الدنيا، والعلاقات، والمشكلات، واتّسع المجال أمام البُعد الإلهي في وجودنا ليظهر ويتجلّى.

ما تعريفكم للغيب والإيمان به؟ وهل ترك الإيمان بحقائق غير مرئية أثرًا في حياتكم ونظرتكم إلى عالم الخلق؟ شاركونا آراءكم وتجاربكم.

^{١٠} السَّائِلُ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللَّهَ وَ مَنْ رَدَّهُ فَقَدْ رَدَّ اللَّهَ؛ مغربي، ابو حنيفة، نعمان بن محمد تميمي، دعائم الاسلام، قم، مؤسسه آل البيت عليهم السلام، ١٣٨٥ ق، ج ١، ص ٢٤٣

^{١١} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ؛ سورة الانعام، آية ٨٢

^{١٢} مجلسي، محمداقبر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣ق، ج ٤٧، ص ١٨